

مرجع الضمير وأثره في توجيه المعنى في تفسير الشعراوي - نماذج مختارة -
**Pronoun Reference and Its Impact on Meaning Interpretation
 In Al-Sha'rawi's Qur'anic Exegesis.**

نصر الدين شيحا

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)

chihanasro@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2025/04/11 تاريخ القبول: 2025/07/31 تاريخ النشر: 2025/09/20

الملخص:

يتناول هذا البحث مسألة "مرجع الضمير" في النص القرآني، من خلال تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي، أحد أبرز المفسرين في العصر الحديث، والذي عرف بطريقته المبسطة في تفسير معاني القرآن والجمع بين البلاغة اللغوية وعمق التدبر، والضمير في اللغة العربية لا يؤدي وظيفة نحوية فقط، بل يمثل أداة دلالية له أثر كبير في بناء المعنى وتوجيهه، وتزداد هذه الوظيفة أهمية في النص القرآني لما يتميز به من إعجاز وثراء بياني.

ونقدم في البحث نماذج تفسيرية لآيات قرآنية مختلفة، تتبع فيها الشعراوي مرجع الضمير، سواء أكان ظاهراً أو محذوفاً أو محتملاً، لنبرز كيف كان يعول على السياق والمقام، في ترجيح مرجع دون آخر. ولتتميز التعبير القرآني بالإيجاز والتوسع في المعنى كشف البحث عن قدرة الشعراوي على توظيف تعدد المرجع لإثراء المعنى وتوجيهه. الكلمات المفتاحية: الضمير، المرجع، الشعراوي، المعنى.

Abstract:

This study addresses the issue of "pronoun reference" in the Qur'anic text through the interpretation of Sheikh Muhammad Metwally Al-Sha'rawi

The research presents interpretive examples from various Qur'anic verses in which Al-Sha'rawi traces the pronoun's reference—whether explicit, omitted, or ambiguous—demonstrating how he relied on context and situational cues to prioritize one referent over another. Given the Qur'an's unique expression, characterized by conciseness and semantic depth, the study reveals Al-Sha'rawi's ability to employ multiple possible referents as a means of enriching and guiding the intended meaning.

Keywords: Pronoun, Reference, Al-Sha'rawi, Meaning.

1 . مقدمة:

اهتم العلماء قديما وحديثا وفي مختلف المجالات العلمية بدراسة الضمير في اللغة العربية، لكونه أكثر أدوات اللغة استعمالاً وتنوعاً في وظائفه، وأحد الوسائل اللغوية في بناء التراكيب وتماسك النصوص، وهو بذلك يتجاوز مجرد كونه أداة إحالة نحوية إلى كونه وسيلة بلاغية ودلالية له أثر كبير في توجيه المعنى، ويظهر هذا جلياً في النص القرآني لتمييزه بالايجاز والتوسع في المعنى، ومن هنا تظهر أهمية دراسة "مرجع الضمير" وخاصة عندما تتعدد الاحتمالات المرجعية، أو عندما لا يكون المرجع مذكوراً صراحة، فيُعَوَّل حينئذ على السياق، أو المقام، أو العهد الذهني، أو التأويل.

والضمير ليس مجرد أداة نحوية حيادية، بل هو عنصر فاعل وأساسي في بناء المعنى؛ فبتغيير مرجعه أو تأويله تتغير دلالة الجملة ومعناها، ويتغير أحياناً التأويل العقائدي أو التاريخي أو التشريعي للنص، وعليه فإن الوقوف على مرجع الضمير، والتدقيق في تعيينه، ليس ترفاً لغوياً، بل هو ضرورة لفهم النص.

وقد أبدع المفسرون في تأويلهم للضمائر القرآنية وبينوا مواضعها ومراجعتها، ومن أبرزهم نجد الإمام محمد متولي الشعراوي، الذي عرف بسعة بيانه، وعمق تأمله في النص القرآني، وبراعته في استحضار المستويات اللغوية والدلالية والنفسية في تفسير الآيات. فقد أبدى الشعراوي اهتماما ملحوظاً بمسألة مرجع الضمير، سواء أكان واضحاً ومذكوراً في السياق أم محذوفاً يُفهم من السياق أو يُستدل عليه بطرق مختلفة، وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تركز على البعد التفسيري للضمير، لا من زاوية نحوية محضة، بل في علاقته بتوجيه المعنى، وتدبر التعبير القرآني، واستكشاف أبعاده البلاغية والدلالية.

ونحاول في هذا البحث الإجابة على مجموعة من الأسئلة، يمكن تلخيصها في التساؤل المركزي الآتي: ما أثر تحديد مرجع الضمير أو تعدده في توجيه المعنى في تفسير الشعراوي؟ ويتفرع عن هذا السؤال تساؤلات أخرى، نحو: كيف تعامل الشعراوي مع الضمائر التي يعود مرجعها على أكثر من اسم؟ وكيف يبرر تأويلاته عند تعيين مرجع الضمير؟ وما هي المعايير التي يعتمد عليها في ذلك؟ ثم، ما الأثر الذي يحدثه اختيار مرجع دون آخر في فهم النص القرآني وتلقيه؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة اخترنا مجموعة من النماذج القرآنية من تفسير الشعراوي، وتحليل طريقتها في تعيين مراجع الضمائر، ورصد الأساليب التي يعتمد عليها في ذلك، سواء أكانت لغوية (كالسياق النحوي، والقرائن اللفظية)، أم سياقية (كالمقام، والعهد الذهني، والربط الموضوعي)، أم تأويلية تعتمد على التوسع البلاغي والتعدد الدلالي للنص. كما لا يمكن إغفال البعد البياني والروحي في تعامله مع النص القرآني.

المبحث الأول: حد مصطلحات البحث:

أ- تعريف الضمير:

لغة: ضمير: الضَّمَرُ من الهُزَالِ (وَلُحُوقِ البَطْنِ)، والفعل: ضَمَرَ يَضْمُرُ ضُمُوراً فهو ضَامِرٌ... والضمير: الشيء الذي تُضمِره في ضمير قلبك.¹ والضمير: ما ينطوي عليه القلب، ويدق على الوقوف عليه، وقد تسمى القوة الحافظة لذلك ضميراً.²

وجاء في لسان العرب: والضمير: السرُّ وداخلُ خاطرٍ، والجَمْعُ الضَمَائِرُ... الضميرُ الشيءُ الَّذِي تُضمِره في قلبك، تقول: أضمرت صرَفَ الحَرْفِ إذا كَانَ مُتَحَرِّكًا فَأُسْكَنْتَهُ، وَأَضْمَرْتُ فِي نَفْسِي شيئاً، والاسم الضميرُ، والجَمْعُ الضَمَائِرُ.³

فالمعنى الجامع للضمير هو الغيبة والتستر والإخفاء.

اصطلاحاً: يعرفه السكاكي: "اعلم أن الضمير عبارة عن الاسم المتضمن للإشارة على المتكلم أو على المخاطب أو على غيرهما بعد سابق لذكره، هذا أصله وهو: أعني الضمير ينقسم على قسمين من حيث الوضع قسم لا يسوغ الابتداء به ويسمى متصلاً وقسم يسوغ فيه ذلك ويسمى منفصلاً"⁴ والضمير ما دل على غيبة ك هو أو حضور وهو قسمان أحدهما: ضمير المخاطب نحو أنت والثاني: ضمير المتكلم نحو أنا.⁵

والضمير في اللغة العربية من المعارف، إذ يقول سيبويه، (ت 180 هـ): "وإنما صار الإضمار معرفة لأنك تُضمِر اسماً بعد ما تعلم أنَّ من يُحدِّث قد عرف من تعني وما تعني، وأنك تريد شيئاً يعلمه"⁶، فالضمائر معرفة، ودلالة تسميتها بالمهمات نجد جوابه عند المبرد (285 هـ) بقوله: "وانما صار الضمير معرفة لأنك لا تضمِره إلا بعد ما يعرفه السامع وذلك أنك لا تقول مررت به ولا ضربته ولا ذهب ولا شيئاً من ذلك حتى تعرفه وتدرى إلى من يرجع

¹ العين (41/7)

² المفردات في غريب القرآن (ص: 512)

³ لسان العرب (4/492)

⁴ مفتاح العلوم (ص: 66)

⁵ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ابن عقيل. (1/88)

⁶ الكتاب لسيبويه (2/6).

هذا الضمير"⁷، ولهذا كله كان الضمير " ما وضع لمتكلم، أو مخاطب، أو غائب تقدم ذكره، لفظاً، نحو: زيد ضربت غلامه، أو معنى، بأن ذكر مشتقه، كقوله تعالى: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}، أي: العدل أقرب لدلالة اعدلوا عليه، أو حكماً، أي ثابتاً في الذهن، كما في ضمير الشأن، نحو: هو زيد قائم."⁸

ب- تعريف التوجيه:

التوجيه هو من المصطلحات التي نجدها في ميادين علمية مختلفة، كالبلاغة والنحو والصرف وفي علوم القرآن والتفسير....

فمثلاً في البلاغة: التوجيه هو إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين بأن يكون أحدهما مدحاً والآخر ذماً، وقد التفت الفراء الى هذا الأسلوب . وإن لم يسمّه . عند تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا} (2) فيفهم منها الذم الذي أراده اليهود والمدح الذي قصده المسلمون حين رغبوا في أن يرعاهم الرسول ﷺ.⁹

وقد أدرج السكاكي هذا المصطلح ضمن المحسنات المعنوية وعرفه: "وهو إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين كقول من قال للأعور: ليت عينيه سواء، وللمتشابهات من القرآن مدخل في هذا النوع باعتبار."¹⁰

والتوجيه الذي نريده في بحثنا هو ما ذهب اليه المفسرون والذي لا يختلف كثيراً عن مفهومه عند البلاغيين، وهو البحث عن الوجه الخفي في الكلام، عبر توضيح معناه وبيان السبب في اختياره دون غيره من المعاني المحتملة، أو من خلال تحليل ما قد يبدو فيه من إشكال. وهذا هو المقصود عندهم بقولهم: (وجه الكلام).

⁷ المقتضب (280 /4)

⁸ التعريفات (ص: 217)

⁹ أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، لبنان، ج 1، ص 432.

¹⁰ مفتاح العلوم ص 426

المبحث الثاني: نماذج لمراجع الضمير عند الشعراوي:

أولاً: المرجع المحدد:

هو الاسم أو العبارة الاسمية التي يُشير إليها الضمير بشكل واضح ومحدد في السياق، بحيث لا يكون هناك التباس في فهم من يعود عليه الضمير، وهو في الغالب يكون مطابقاً للضمير في العدد (مفرد/جمع)، النوع (مذكر/مؤنث)، وأحياناً في الشخص (متكلم/مخاطب/غائب)، وهذا المرجع قد يأتي قبل الضمير أو بعده.

ولم يسهب الشعراوي في حديثه عن المراجع القبلية في تفسيره وربما هذا راجع لتعنيها ولعدم وجود خلاف فيها، وبين في تفسيره كيفية تعيين مرجع الضمير وأهميته "والضمير مُبهم لا يُعَيِّنُهُ إِلَّا التَّكَلُّمُ، فأنت تقول: أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن، فالذي يُعَيِّنُ الضمير المتكلم به حال الخطاب، فعُمْدَةُ الفهم في الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب. فإن لم يكن متكلماً ولا مخاطباً فهو غائب، فمن أين تأتي بقرينة التعريف للغائب؟

حين تقول: هو، هي، هم. مَن المراد بهذه الضمائر؟ كيف تُعَيِّنُهَا؟ إِنَّ عَيَّنْتَ المتكلم بكلامه، والمخاطب بمخاطبته، كيف تُعَيِّنُ الغائب؟ قالوا: لا بُدَّ أَنْ يسبقه شيء يدل عليه، كأن تقول: جاءني رجل فأكرمتُه، أكرمت مَن؟ أكرمت الرجل الذي تحدثت عنه، جاءني امرأة فأكرمتُها، جاء قوم فلان فأكرمتهم. إذن: فمرجع الضمير هو الذي يدلُّ عليه"¹¹.

ومن بين الضمائر التي فسر مراجعها ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 255]

يقول: " فعندما ندقق في قول الحق «لا تأخذه سنة ولا نوم» نجد أن الضمير في «لا تأخذه عائد إلى ذاته جل شأنه... «وله ما في السماوات وما في الأرض» فيها ضمير عائد إلى ذاته سبحانه"¹².

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ عَالِيكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: 11]

¹¹ تفسير الشعراوي (16/ 9740)

¹² تفسير الشعراوي (2/ 1110)

بدأت الآية بنداء للذين آمنوا وجاءت بعد هذا النداء ضمائر تحيل على المؤمنين وهي «إليكم» أو «عنكم»، ويرى الشيخ الشعراوي: " أن كل ضمير في الآية يعود على المؤمنين مع النبي ﷺ، فالمؤمنون ملتحمون بمنهج النبي ﷺ" ¹³

وقد أشار الشعراوي في تفسيره لبعض المواضع التي أتى فيها المرجع بعد الضمير، والأصل في مرجع الضمير أن يكون متقدماً في نظم الجملة، ويأتي بالضمير راجعاً إلى متأخر في اللفظ، متقدم في الرتبة في مواضع من الكلام وهذا ما أشار إليه ابن مالك في كتاب «التسهيل» بقوله: " ويتقدم غير مَنَوِيّ التأخير إن جرَّ برَّبٍّ، أو رفع بِنِعَمٍ، أو شبهها، أو بأول المتنازعين، أو أبدل منه المفسر، أو جعل خبره، أو كان المسعى ضمير الشأن عند البصريين، أو ضمير المجهول عند الكوفيين" ¹⁴.

فالنحاة يستثنون من القاعدة القائلة: «يمنع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة» هذه الأبواب التي سردها ابن مالك، وهي مبسطة في كتب النحو بشواهدا العربية وأمثلةها. وما يدخل في هذا الباب ضمير الشأن وهو ضمير لم يتقدمه ما يعود عليه، "ويكون في صدر جملة بعده تفسر دلالتة، وتوضح المراد منه، ومعناه وإنما سمي ضمير الشأن لأنه يرمز للشأن، أي: للحال المراد الكلام عنها، والتي سيدور الحديث فيها بعده مباشرة." ¹⁵ نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 192]

فقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ [الشعراء: 192] كان يفترض أن يسبقه مرجع ليعود عليه هذا الضمير وهو لم يُسَبَقْ بشيء وأرجع الشعراوي أن المرجع الذي أحال عليه الضمير هو: "القرآن الكريم وعرفناه من قوله سبحانه ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 192] وَقُدِّم الضمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذهن إلا إليه، فحين تقول: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] لا ينصرف إلا إلى الله، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 192] لا ينصرف إلا إلى القرآن الكريم." ¹⁶

¹³ تفسير الشعراوي (5/ 2981)

¹⁴ شرح التسهيل لابن مالك (1/ 162).

¹⁵ النحو الوافي (1/ 252)

¹⁶ تفسير الشعراوي (17/ 10682)

وعن السر في تقديم ضمير الشأن يقول الخطيب القزويني: "ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظرًا لعقبى الكلام: كيف تكون، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكن"¹⁷ ففيه تشويق للمتلقى، حيث يتم الإيضاح بعد الإبهام، فيكون ذلك أوقع في النفس وأبلغ، أو يكون لقصد التفصيل بعد الإجمال.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] نلاحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر، فالمرجع متأخر، ""ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله، فإذا قيل: هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا لله عَزَّ وَجَلَّ"¹⁸ فقوله: هو ضمير الشأن ومفسره الجملة بعده، وواضح أن مضمونها معنى كبير هو محور الصراع في تاريخ البشرية، ولو قال سبحانه: {اللَّهُ أَحَدٌ} لما وجدت للكلام هذا الأثر، وهذا القوة التي تحسبها النفس من هذه التهيئة المؤذنة بأن ما سيأتي بعدها كلام له خطر عظيم.¹⁹

ثانياً _ المرجع غير المحدد:

نقصد به الاسم أو العبارة التي لا يمكن تحديدها بشكل دقيق وواضح في السياق، ويجد القارئ صعوبة في تحديده أي: أن الضمير يعود على مرجع أو أكثر بشكل عام أو غير محدد. ومن أهم خصائص وأغراض عدم تحديد المرجع في القرآن الكريم هو الإيجاز في العبارة والتوسع في المعنى، ومن أهم صوره:

أ_ تعدد المرجع/ (عودة الضمير على متعدد):

الضمير هو وحدة نحوية لا يحمل دلالة معجمية، بل يحمل مقولات تعود على ما يحيل إليه هذا الضمير، وقد يأتي اللبس من تعيين المرجع أو (المحال إليه)، فتتعدد بالتالي الاحتمالات والتأويلات، فيلجأ عندئذ إلى ترجيح أحدها اعتماداً على مهارة المفسر أو المتلقى أو بالاحتكام إلى قرائن معينة.

¹⁷ الإيضاح في علوم البلاغة (2/ 82)

¹⁸ تفسير الشعراوي (16/ 9741)

¹⁹ خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني (ص: 242)

ونجد هذا الضرب في النص القرآني حاضرا في تفسيره، وحدد الشيخ الشعراوي المراجع حسب السياق القرآني الذي يستعمل فيه هذا الضمير، نحو قوله تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا﴾ [الرعد: 2] هنا نجد مرجعين: (السماء) و(العمد) فعلى أي منهما تعود الهاء الموجودة في كلمة (ترونها)، هل تعود (الهاء) إلى المرجع الأول وهو السماوات، أو للمرجع الثاني وهو (العمد)؟

ففي مثل هذا التركيب يرى الشعراوي أنه "إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما"²⁰. ومعنى هذا أن كلا الاحتمالين مراد في الآية الكريمة وبالتالي تتوسع دلالة المعنى فكلا المرجعين صالح لأن يعود عليه الضمير وأبرز الشعراوي ذلك بقوله "فيصح أن تعود (الهاء) إلى السماوات. فيكون المعنى: أي خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم.

ويصح أيضاً أن تعود إلى العمدة. أي بغير العمدة التي نعرفها ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية. أو رفع السماوات ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا﴾ أي أن العمدة مخفية عن رؤية البشر. وهكذا يصح أن ينسب الضمير ويعود إلى أحد المرجعين.²¹

فتأويل الشعراوي هنا للضمير ومرجعه أعطى لهذا التركيب معان تتناسب مع المقصد الذي تريد الآية إيصاله فوافق المقام مقتضى الحال في كلا التعبيرين دون تعارض، بل أنهما يتممان بعضهما البعض، فاستنباطه لمعان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ والمقام ولا يجافها الاستعمال ولا مقصد القرآن.

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ [هود: 110]. في الآية مراجع متعددة تتمثل في: النبي موسى عليه السلام والكتاب أي التوراة ويأتي بعدهما ضمير واحد وهو: فيه.

وجوز الشعراوي هنا أن يعود الضمير على أحدهما "فيصح أن يكون الاختلاف في أمر موسى، ويصح أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب، والخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر؛ لأنه لا انفصال بين موسى عليه السلام، والكتاب الذي أنزله الله عليه.²²

²⁰ تفسير الشعراوي (11/ 6696)

²¹ تفسير الشعراوي (5/ 2803)

²² تفسير الشعراوي (11/ 6696)

فالأمران يلتقيان: لأن الإيمان بالنبي هو إيمان بالكتاب المنزل عليه والعكس صحيح، ولذلك لم يجعلهما النظم القرآني أمرين، بل هما أمر واحد، لأن الرسول لا ينفصل عن رسالته ومنهجه في الدعوة.

ومن لطائف التفسير البياني للضمير ومرجعه، والتي ساقها الشعراوي في تفسيره ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159] والآية التي نحن بصدددها، نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما المسيح الذي ذكر في الآية السابقة وأحد من أهل الكتاب²³، وفيهما ضميران اثنان في به وموته.

وهنا يورد الشعراوي الحالات التي يمكن أن نرجع إليها الضمير: "فهل يعود الضميران على عيسى، أو يعودان على أهل الكتاب؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب؟ وأي منهما الذي يرجع على عيسى، وأي منهما الذي يرجع على أهل الكتاب؟

أو أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يُذكر ويعلم من السياق هو محمد ﷺ، ونجد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث، أي إلى محمد ﷺ الذي بشر بمجيئه عيسى ابن مريم"²⁴

من خلال كلام الشعراوي السابق حول الضمائر في هذه الآية ومراجعتها يمكن أن نوضح المراجع المحتملة من كلامه:

عيسى عليه السلام + به + موته

أحد من أهل الكتاب + به + موته

أحد من أهل الكتاب + به / عيسى عليه السلام + موته

عيسى عليه السلام + به / أحد من أهل الكتاب + موته

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ + به + موته

²³ في هذه الآية محذوف تقديره: وما أحد من أهل الكتاب أو إن من أهل الكتاب أحد. ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب

المكنون السمين الحلبي (756هـ)، تج: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 149/4

²⁴ تفسير الشعراوي (2803/5)

فالشعراوي في الآية السابقة يلجأ إلى التفسير النحوي في تقدير المرجع ومفاده أنه إذا تقدم ما يصلح للتفسير شيئا فصاعدا، فالمفسر هو الأقرب لا غير، ويجوز مع القرينة أن يكون للأبعد²⁵، ولجأ أيضا للتأويل في تحديده للمعنى المقصود، ففي الآية تعدد للإحالة ومراجعتها، وهي إحالات داخلية باستثناء الإحالة الأخيرة وهي خارجية، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يرد ذكره هنا، وكل هذه المعاني واردة من باب الإيجاز والتوسع في المعاني، والتعبير عن المعاني المتكاثرة بالألفاظ القليلة والعبارات الموجزة، وهي طريقة القرآن في نظمه المعجز، ويعرف هذا الأسلوب في البلاغة العربية بالكلام الموجه أو التوجيه.

ب_ عود الضمير على الجزء:

تتكون من مرجعين وعنصر إحالي واحد، لكن الإحالة تعود إلى عنصر إشاري واحد فقط، أي أنها إحالة لبعض المذكور. نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ (45)﴾ [البقرة: 45]

فجاء الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، وكان سياق الآية يقتضي أن يقال: «وأنهما» لكن القرآن قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ فهل المقصود واحدة منهما. الصلاة فقط. أم الصبر؟

وذكر الشعراوي رأيه في مثل هذه الإحالة وأن مرجع الضمير يعود عليهما معا وذلك لوجود علاقة أو رابط معنوي بين العنصرين المشار إليهما جاء في تفسيره: "نقول إنه عندما يأتي أمران منضممان إلى بعضهما لا تستقيم الأمور إلا بهما معا فيكونان علاجاً واحداً.²⁶

ولتوضيح موقفه من ذلك يورد أمثلة أخرى نحو قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62]

فقال يرضوه ولم يقل يرضوهم. التفسير السابق نفسه نفهمه: ليس لله حق ولرسوله حق. ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد.

²⁵ شرح الرضي على الكافية: ، 1978.

²⁶ تفسير الشعراوي (308 /1)

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11]

والأصل أن يقال إليهما "ولكن التجارة واللهو لهما عمل واحد. هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ لأن العلاج في الصبر مع الصلاة. والصبر كبير أن تتحملة النفس. وكذلك الصلاة. لأنهما يأخذان من حركة حياة الإنسان. والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها. والصلاة تحارب الاستكبار في النفس. فكان الوصفة الإيمانية لا تتجزأ. فلا يتم الصبر بلا صلاة، ولا تتقن الصلاة إلا بالصبر.

ويمكن إدراج ضمن هذا الباب (عود الضمير على بعض مرجعه) ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: 11]

جاء في تفسير الشعراوي: "والمعمر هو الإنسان الذي طعن في السن، ولا ينقص من عمر هذا المعمر إلا كما أراد الله، والهاء في (عمره) تعود إلى بعض من المعمر. ذلك أن كلمة (معمر) مكونة من عنصرين هما (ذات الرجل) و(عمر الرجل)، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير، فيكون المعنى هو: وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير".²⁷

والمعنى هنا أن الله حدد في كتابه المقدّر لكل شخص مقدار عمره، سواء كان ذلك بزيادة أو نقصان، فكلمة "معمر" تتألف من عنصرين: "ذات الشخص" و"عمر الشخص"، والضمير في "عمره"، يصح أن يعود على "ذات الشخص" دون التعمير، وهذا يبيّن دقة التعبير القرآني الذي يشير إلى أن كل تغيير في عمر الإنسان مسجل في كتاب الله.

كما خالف الشعراوي القاعدة النحوية حول إرجاع الضمير إلى الأقرب ويحكم السياق في تبين مرجع الضمير في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ إذ اختلف العلماء في قوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾، هل المقصود بها رسول الله ﷺ وهو المذكور الأقرب؟ أو أن المقصود بها أبو بكر الذي ورد ذكره في الآيات السابقة؟

²⁷ تفسير الشعراوي (5/ 2802)

جاء في تفسيره: "وأقول: ولكن لماذا لا نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لَصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وهذا قول رسول الله؛ ولا بد أن قوله يجعل السكينة تنزل على قلب أبي بكر. إذن: فالضمير هنا عائد على أبي بكر"²⁸

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: 10].

فرأى الشعراوي أن مرجع الضمير لا يرجع على الأرض المذكورة في سياق الآية بل يعود على الجبال في قوله: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: 10] جاء في تفسيره: "الضمير لا يعود على الأرض، إنما على الجبال. لأن الجبال في الحقيقة هي مخازن القوت ومصدر الخصب للأرض، التي هي مصدر القوت"²⁹

ج. عود الضمير على مرجع خارج النص:

تتكون من عنصر إشاري غير مذكور وعنصر إحالي. ويرى لسانيو النص أن الإحالة الخارجية أداة هامة تعمل على تماسك النص، من خلال الإشارة إلى مراجع أو مفاهيم خارجية غير مذكورة مباشرة في النص، فهي تتطلب من القارئ العودة إلى السياق الخارجي أو استخدام معرفته السابقة لفهم النص، وينجم عن هذا في بعض الأحيان تعدد المعاني وتفسير النص بأكثر من طريقة، خاصة عندما تكون المراجع الخارجية غنية بالدلالات.

وقد بين الشعراوي دور هذا النوع في تماسك النص، وقدم تفسيراً بيانياً له، فوقف عند أهم مواضع عودة الضمير إلى شيء غير مذكور في القرآن، فالإحالة بالضمائر يكتفى فيه بكل ما يفهم وقد يعود على ما لا ذكر له، فيكون معاد الضمير محذوفاً اعتماداً على القرائن، ويعتمد المتلقي في إرجاع الضمير إلى مرجعه على ثلاثة أمور:

أ - المقام.

ب - السياق اللغوي.

ج - المتلقي (العهد الذهني).

²⁸ تفسير الشعراوي (8/ 5130)

²⁹ تفسير الشعراوي (15/ 9391)

ومن الأمثلة عن ذلك،³⁰ الإحالة بالضمير على القرآن الكريم إذ جاءت في مواضع مختلفة من الذكر الحكيم، ولهذا يمكن تعيينها لوضوحها، في حالة عدم ذكره كما:

في قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ...﴾ [الإسراء: 105]

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾

أي: القرآن؛ لأنه شيء ثابت مُتَعَيَّن لا يُخْتَلَف عليه.

وهناك مواضع عديدة في النظم القرآني للإحالة بالضمائر على عائد غير مذكور، ونبه الشعراوي على دور القرائن لتعيينها، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: 32] والمراد: الشمس التي غابت، ففاتت سليمان عليه السلام الصلاة، ولم تذكر الآية شيئاً عن الشمس. لكن توجد قرائن لغوية تدل عليها وهي: العشي في الآية التي سبقتها، والحجاب. كذلك في: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: 45] أي: على الأرض ولم تذكرها الآية.

وجاء في آية أخرى ضمير الغائب المفرد في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ...﴾ [الحج: 15]، فقبل هذه الآية لا يوجد مرجع للضمير لقوله: ﴿يَنْصُرُهُ...﴾ [الحج: 15]، واعتماداً على المقام يذكر الشعراوي أنه يعود على الرسول ﷺ جاء في تفسيره: "الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد ﷺ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون، فالمقام مُتَعَيَّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله ﷺ".³¹

وقد يحيل ضمير الغيبة على عناصر متعددة غير مذكورة تتوافق مع المقام نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ...﴾ [المؤمنون: 67] الهاء في (به) ضمير مُبْهِم، يُعْرَفُ بمرجعه، وفي الآية لم يتقدم اسم يعود عليه الضمير، وإذا رجعنا إلى مقام النص نجد أن "الكلام هنا عن الرسول الذي أرسل إليهم، والقرآن الذي أنزل عليهم معجزة ومهاجاً، إذن: لا يعود الضمير إلا إلى واحد منهما".³²

³¹ تفسير الشعراوي (16/ 9741)

³² تفسير الشعراوي (16/ 10083)

كما قد يعود الضمير هنا إلى " بيت الله الحرام، وقد كان سبباً لمكانة قريش ومنزلتهم بين العرب، وأعطاهم وضِعاً من السيادة والشرف"³³.

والمرجع الأخير جوزه ابن عاشور أيضاً جاء في تفسيره: "ويجوز أيضاً أن يكون الضمير للبيت أو المسجد الحرام وإن لم يتقدم له ذكر لأنه حاضر في الأذهان"³⁴.

وخالف الشعراوي بعض المفسرين في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106)﴾ [طه: 105 - 107] فالضمير في ﴿فَيَذَرُهَا﴾ [طه: 106] يعود على الجبال عند الزمخشري³⁵ وابن عاشور³⁶ التي سبق ذكرها في الآية السابقة، وبينما يرى الشعراوي أنه يعود على مرجع غير مذكور وهي الأرض معللاً ذلك "أن الجبال لا تكون قاعاً صفصفاً، والأرض مكان الجبال فتصير ملساء مستوية، لا بناءً فيها ولا جبال، فالأرض شيءٌ والجبال فوقها شيء آخر"، الشعراوي هنا استند إلى الواقع الطبيعي والمنطق الذي يؤكد أن الجبال عند نسفها لا تتحول إلى قاع صفصف وإنما يعود الضمير إلى الأرض التي كانت تحت الجبال، ولم يسبق ذكر للأرض في هذه الآيات وإنما دلت عليها قرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال.

³³ تفسير الشعراوي (16/10083)

³⁴ التحرير والتنوير (18/86)

³⁵ الكشف عن حقائق التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ج3 ص3/88

³⁶ التحرير والتنوير 307/16

4. خاتمة:

لقد كانت للشيخ الشعراوي عناية خاصة في تبين مراجع الضمير في القرآن الكريم، بأسلوب مقنع وتحليل أدبي ماتع، أبرز فيه دقة التعبير القرآني وبلاغته، وتناول في تفسيره الحالات التي يكون فيها المرجع واضحاً والأخرى التي تتطلب تحليلاً وفهماً دقيقاً لتحديد المرجع المناسب، ويتضح أن هذه الأداة اللغوية ليست مجرد إشارة تقليدية، بل هي جزء أساسي من بنية النص القرآني وسر تماسكه، ووسيلة لاستكشاف المعاني العميقة والمختلفة للآيات، وفهم مراجع الضمير عند الشعراوي يتطلب مراعاة السياق اللغوي وحتى الموضوعي، مما يتطلب التدبر الواسع في فهم النصوص القرآنية وتفسيرها. وكان في كثير من المواضع يتوسّع في دلالة الضمير ويؤسس على تعدد مرجعياته، مما يمنح النص أبعاداً دلالية وبلاغية أعمق، ويزيد من غناه التفسيري. ومن أهم نتائج الدراسة:

- الضمير في القرآن الكريم أداة بلاغية له دور كبير في التعبير القرآني، يتجاوز دوره النحوي التقليدي، ويسهم بشكل فعال في اتساق النص وتوجيه معانيه.
- تعيين مرجع الضمير عند الشعراوي يتم بناءً على سياق أوسع، يشمل البنية اللغوية والموضوع القرآني والمقام الخطابي، لا مجرد الترتيب النحوي.
- إن تعدد مرجعيات الضمير يُعد ظاهرة تفسيرية نبه إليها الشعراوي لإبراز ثراء المعنى القرآني، معتمداً على قابلية الضمير لاستيعاب أكثر من دلالة دون إخلال بسياق الآية.
- أظهر البحث أن فهم مرجع الضمير ضرورة (تأويلية)، وليست مجرد عملية تحليل لغوي، إذ يترتب عليها اختلافات تأويلية ذات أبعاد عقدية وتاريخية وأدبية.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. الإستراباذي، محمد بن الحسن الرضي، شرح الرضي على الكافية، (د. ط)، ليبيا: منشورات جامعة قاريونس، 1978.
2. ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، (د. ط)، القاهرة: الأصدقاء للطباعة والنشر، (د. ت).
3. ابن مالك، محمد بن عبد الله، شرح تسهيل الفوائد، ط1، القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 1410هـ.
4. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (د. ط)، القاهرة: دار المعارف، (د. ت).
5. الجرجاني، علي بن محمد الزين الشريف، التعريفات، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ / 1983م.
6. الخليل بن أحمد الفراهيدي، أبو عبد الرحمن، كتاب العين، (د. ط)، بيروت: دار ومكتبة الهلال، (د. ت).
7. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ط1، دمشق: دار القلم، 1992م.
8. الزمخشري، أبو القاسم محمود، الكشاف عن حقائق التنزيل، ط1، بيروت: دار إحياء التراث الغربي، 2001م.
9. السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1407هـ.
10. السمين الحلبي، محمد بن عبد الرحمن، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، (د. ط)، دمشق: دار القلم، (د. ت).
11. سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، ط1، بيروت: دار الجيل، 1991م.
12. الشعراوي، محمد متولي، خواطر الشعراوي، (د. ط)، مصر: مطابع أخبار اليوم، 1997م.
13. عباس حسن، النحو الوافي، ط15، القاهرة: دار المعارف، (د. ت).
14. القزويني، الخطيب عبد الرحمن بن أبي بكر، الإيضاح في علوم البلاغة، (د. ط)، بيروت: دار إحياء العلوم، 1998م.

15. المبرد، محمد بن يزيد، *المقتضب*، (د. ط)، بيروت: عالم الكتب، (د. ت).
16. محمد أبو موسى، *خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني*، ط7، القاهرة: مكتبة وهبة، (د. ت).
17. محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، (د. ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م.
18. مطلوب، أحمد، *معجم المصطلحات البلاغية وتطورها*، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، 2007